الفصل الأول

الجغرافية التأريخية

أولا- تعريفها

(الجغرافيا التأريخية)بالإنجليزية (Historical Geography) :ليست الجغرافيا التاريخية أحد فروع الجغرافيا الطبيعية أو الجغرافيا البشرية، وإنما هي جغرافية الماضي بجوانبه الطبيعية والبشرية، بمعنى إنها لا تقتصر في دراستها على الظروف الطبيعية للماضي، وإنما تهتم بدراسة النشاط البشري كذلك. ولا يمنع ذلك من أن تكون هناك دراسات عن الجغرافيا المناخية في الماضي، أو دراسات عن الهجرات البشرية. ومجمل القول إن الجغرافيا التاريخية تضم في رحابها وجهي الجغرافيا الطبيعية والبشرية لتجعلهما علماً واحداً، موضوعه جغرافيا العصور السابقة، ومن هنا اكتسبت اسم تاريخية.

العلاقة بين الجغرافيا والتاريخ:

تعتبر العلاقة المتبادلة القوية بين الجغرافية التي تمثل علم المكان، والتاريخ الذي يعتبر علم الزمان موضوع قديم جداً، شغل فكر الإنسان منذ أن اهتم بدراسة طبيعة المجتمع البشرى على سطح الأرض، والواقع أنه لا يمكن فصل عاملي المكان والزمان عن بعضهما، كذلك لا يمكن الفصل بين الجغرافيا والتاريخ؛ فالتاريخ بغير جغرافيا كما قال بيتر هايلين كالجثة الميتة لا حياة فيها أو حراك على الإطلاق، كما أن الجغرافيا بغير التاريخ قد تكون لها حياة أو حركة، ولكنها بغير نظام أو نسق تدور في فلكه، ونزيد على ذلك فنقول أنها كفروع شجرة انفصلت عن أصولها، وقد تبدو كثير من الحقائق الجغرافية في الوقت الحاضر غامضة غير مفهومة، حتى نلقى الضوء عليها من خلال التعرض لتطور التاريخي، فتظهر الحقيقية وتبدو لنا صورتها واضحة مفهومة، فدراسة التطور التاريخي وحده هو الذي يجعل الحقائق الجغرافية الراهنة ذات معنى واضح.

حيث أن الجغرافيا وهى علم المكان.. بدون الإنسان الذي يعمر هذا المكان لا تعتبر جغرافيا، لأنه إذا ما أهملنا العنصر البشرى لدخلت دراستها فوراً في نطاق العلوم الأخرى

وتستمد الجغرافيا التاريخية مادتها من عدة علوم، فهي ذات صلة وثيقة بفروع الجغرافيا الأخرى خاصة الجيومورفولوجيا، و الجغرافيا المناخية، و الجغرافيا الحيوية، إضافة إلى الجغرافيا البشرية بفروعها المختلفة، وتستعين الجغرافيا التاريخية بعلم المناخ القديم) بالإنجليزية(Paleoclimatology :، للتعرف على الأحوال المناخية التي سادت مناطق العالم في العصور المختلفة خاصة عصر البليوستوسين) بالإنجليزية .(Pleistocene :وللجغرافيا التاريخية صلة وثيقة بعلم الآثار) بالإنجليزية(Archeology :، إذ يلجأ دارس الجغرافيا التاريخية إلى الآثار التي خلفها الإنسان، فعن طريق ما خلفته المجتمعات القديمة يتمكن الآثاريون من تجميع الأدلة التي تفيد دارس الجغرافيا التاريخية. ومن العلوم الأخرى علم الأنثربولوجيا) بالإنجليزية (Anthropology :بشقيه الطبيعي والحضاري، وهو يفيد الجغرافيا التاريخية في التعرف على الحضارات المختلفة، وكيفية ملاءمتها واستمرارها أو تغيرها. وتهتم الجغرافيا التاريخية باللغويات)بالإنجليزية(Linguistics :، فعن طريق التحليل اللغوي يتمكن دارس الجغرافيا التاريخية من التعرف على الإنسان في الفترات

التاريخيــة المختلفــة، إذ تعـد اللغــة هــي وسـيلة للحفـاظ علــى الحضــارة ونقلهــا مــن جيـل إلــى آخــر. ولا شك أن العلاقة وثيقة بين الجغرافيا التاريخية و علم التاريخ.

ثانياً- أهميتها في دراسة التاريخ القديم

تهدف دراسة الجغرافية التاريخية الى التعرف على اصل الظواهر الجغرافية وكيفية تطورها، ودراسة الانسان وفعالياته المختلفة وتفاعلها مع الحيز المكاني، ومع ذلك فقد اختلفت أراء الجغرافيين حول تعريف واضح للجغرافية التاريخية، ففي القرن التاسع عشر كانت تعرف على أنها (العلم الذي يدرس تاريخ الكشوف الجغرافية والخرائط) لكنه يبقي الجغرافية التاريخية علماً وصفياً يهتم بالأساس بوصف وتسمية المظاهر الجغرافية والمسح الكارتوغرافي، لاسيما وإن الجغرافية خرجت من العباءة الوصفية إلى التحليل الكمي والدراسات التطبيقية.

عرف الأستاذ فوست (١٩٣٢) "الجغرافية التاريخية بأنها (ذلك الجزء الأساسي من الجغرافيا الذى يتناول دراسة تأثير الحوادث التاريخية على الحقائق الجغرافية)، بينما عرفها روكسى(١٩٣٥) بأنها (الدراسة التحليلية أو النقدية لتطور الملائمة أو العلاقة بين الإنسان والطبيعة كما تظهر في تاريخ المحلات العمرانية، أو استغلال الأرض، أو العلاقات التجارية والثقافية أو في تطور الوحدات السياسية والدول والعلاقة بين بعضها والبعض الآخر)، ويرى الأستاذ هارتشورن (١٩٣٩) أنها (تقوم بشرح توزيع الجماعات البشرية ووصف تكوينها العنصري وتطور هذا التكوين خلال التاريخ، وذلك بالإضافة إلى دراسة النواحي الاقتصادية والسياسية لمنطقة ما خلال فترة تاريخية ما)، وبذلك يشير إلى إن جغرافية الحاضر تكتسب عمقاً ومعنى بالرجوع إلى جغرافية الماضي، في حين يري الجغرافي هالفورد ماكندر ـ الذي يعد مؤسس الجغرافية التاريخية ليس في انكلترا وحسب بل على مستوى العالم (أن الجغرافيا التاريخية تقوم أساساً علي دراسة الحاضر التاريخي)، بينما الجغرافيا التاريخية من وجهة نظر الجغرافي الكبير جلبرت الأستاذ بجامعة أكسفورد تندرج تحت خمسة مفاهيم على الأقل هي)دراسة تاريخ علم الجغرافيا، دراسة تاريخ الكشوف الجغرافية، دراسة تغيرات الحدود السياسية بين الدول، دراسة تأثير البيئة على مجرى الحوادث التاريخية، دراسة الجغرافيا الإقليمية للماضي).

من خلال ذلك نخلص إلى أن الجغرافيا التاريخية هي جغرافية الماضي، وليست هذه الدراسة هدفاً في حد ذاتها، ولكن الهدف منها التعرض لتطور المكان خلال الزمن، وهذا مما يجعلها تعطى بعداً آخر للمكان وهو البعد الزماني الذي يضفى عليها حركة وحياة، وتعطى الباحث فكرة واضحة عن (روح المكان)، فلا تصبح الحقول والمحاصيل، أو المدن أو المصانع والمناجم مجرد منشآت يدرس توزيعها وحاصلاتها وعدد سكانها وما إليها، بل تصبح هذه الحقائق الجغرافية أعضاء في كيان واحد تنبض بالحركة باستمرار، وهذا مما لا يجعل الجغرافيا علماً ساكناً، بل تصبح علماً متحركاً (ديناميكياً)، ولابد وأن لهذه الحركة إيقاع محدد، يجب على الباحث في الجغرافيا التاريخية أن يوضحه، يجب علينا أن ننفي عن الجغرافيا التاريخية مقولة أنها جغرافيا للتاريخ، مجرد خادم له أو أنها تاريخ للجغرافيا بل هي علم له مجاله وهدفه لا ينحدر إلى مجرد تبريرات لمجريات التاريخ، كما أن تاريخ الجغرافيا علم آخر مستقل.

وتأتي أهمية الجغرافية التاريخية من قدرتها على وصف الخصائص الطبيعية في الماضي، وبيان دور العامل البشري فيها وتحليلها ضمن اطارها المكاني من اجل أن تكون الدراسة ذات جدوى.

موقع الجغرافية التاريخية من فروع الجغرافية الاخرى

أن معظم الباحثين يميلون إلى اعتبار الجغرافيا التاريخية جزءاً من الجغرافيا البشرية في مظهرها التطوري، ولكن ربما يكون ذلك قصور في الفهم، فكما أن هناك جغرافية تاريخية بشرية هناك جغرافية تاريخية طبيعية، إذ تتميز الجغرافية عن بقية العلوم بكونها علمٌ واسع متعدد الاقسام والفروع بحكم اهتمامه بدراسة الارض وما على سطحها، من مظاهر طبيعية وبشرية (حضارية) لذا تعد علماً واحداً له مظهران طبيعي وبشري، مما ساهم بتشعب دراستها وتنوعها.

وقد عمد الجغرافيون إلى تقسيم علمهم إلى قسمين رئيسيين، لتسهيل البحث المنهجي هما الجغرافيا البشرية والجغرافيا الطبيعية ويعرف كلاهما بالجانب العام أو الأصولي، أما شخصية المكان الواحد فهو موضوع الجغرافية الإقليمية وهو ما يعرف بالجانب الخاص، والتي يعدها البعض قسماً آخر من أقسام الجغرافية، أما الجغرافيا التاريخية فهي علمٌ واحد موضوعه جغرافية العصور السابقة، وعلي الرغم من تعرضها لدراسة الجوانب الطبيعية والبشرية وفق البعد الزمني والمكاني، إلا أنه لا يمكن إدراجها ضمن أيا من أقسام الجغرافية ـ السابقة الذكرـ لذا جاءت الجغرافية التاريخية لتشكل قسماً مستقلاً، ومهما استمدت موضوعاتها من قسمي الجغرافية فهي بذلك تكوّن اختصاصات وفروع جديدة تابعة لها، فتشعبت بدورها واتسعت مما ادى الى تعدد مفاهيمها، كدراسة في الجغرافية التاريخية للمناخ القديم، أو الجغرافية التاريخية للموارد المائية، أو دراسة اشكال الارض المختلفة في الازمنة والعصور الجيولوجية المختلفة، وهي بذلك ترتبط بالجغرافية الطبيعية، أما ارتباطها بالجغرافية البشرية يولد فروعاً مثل دراسة في الجغرافية التاريخية الاقتصادية (الانشطة الزراعية والصناعية والتجارية)، أو دراسة التغيرات في الحدود السياسية لفهم المشاكل السياسية الراهنة وتعد جغرافية تاريخية سياسية، أو دراسة الجغرافية التاريخية للمدن عند دراسة الوظيفة السكنية أو التركيب الداخلي للمدن وغيرها.

ثالثا-العلاقة بين الجغرافيا والتاريخ

تعتبر العلاقة المتبادلة القوية بين الجغرافية التي تمثل علم المكان، والتاريخ الذي يعتبر علم الزمان موضوع قديم جداً، شغل فكر الإنسان منذ أن اهتم بدراسة طبيعة المجتمع البشرى على سطح الأرض، والواقع أنه لا يمكن فصل عاملي المكان والزمان عن بعضهما، كذلك لا يمكن الفصل بين الجغرافيا والتاريخ؛ فالتاريخ بغير جغرافيا كما قال بيتر هايلين كالجثة الميتة لا حياة فيها أو حراك على الإطلاق، كما أن الجغرافيا بغير التاريخ قد تكون لها حياة أو حركة، ولكنها بغير نظام أو نسق تدور في فلكه، ونزيد على ذلك فنقول أنها كفروع شجرة انفصلت عن أصولها، ولقد تبدو كثير من الحقائق الجغرافية في الوقت الحاضر غامضة غير مفهومة، حتى نلقى الضوء عليها من خلال التعرض لتطورالتاريخي، فتظهر الحقيقية وتبدو لنا صورتها واضحة مفهومة، فدراسة التطور التاريخي وحده هو الذي يجعل الحقائق الجغرافية الراهنة ذات معنى واضح.

ولقد أدرك كثير من المؤرخين هذه العلاقة بين الجغرافيا والتاريخ، منذ أن كتب ميشليه كتابه عن تاريخ فرنسا(١٨٣٣)، ونقل هذا التاريخ من مجرد سلسلة من المنازعات وأخبار السياسة الداخلية، إلى إدراك حقيقى للتطور الذي حدث فوق مسرح معين هو أرض فرنسا، أي أنه تطور جغرافي وقد كتب يقول " بغير الأساس الجغرافي يبدو لنا أن الناس الذين يصنعون التاريخ كما لو كانوا يمشون في الهواء أي علي غير أساس، أو أشبه بالرسوم المتحركة تتحرك علي غير أرض، ويجب ألا ننظر إلى المكان على أنه مجرد مسرح لحوادث التاريخ فالمكان له تأثير يتجلى في أشكال عديدة مثل الطعام، والمناخ، وهو يؤثر في الجماعات البشرية كما يؤثر في الأفراد.

وكانت هذه البداية من ميشليه أساس صار عليه من تبعوه في الكتابات التاريخية، حتى لقد أصبح من عادة المؤرخين الفرنسيين أن يصدروا دراستهم التاريخية بمقدمة جغرافية تشرح المسرح الذي جرت عليه الأحداث وأثرت فيها، وجدير بنا أن نذكر كتاب الجغرافي الفرنسي فيدال دي لابلاش عن جغرافية فرنسا (١٩١١) باعتباره مقدمة للكتاب العظيم عن تاريخ فرنسا الذى ألفه لافيس، أي أننا نجد أن علماء الجغرافيا والمؤرخين كانوا في بوتقة واحد.

ومن بعد تلك البداية الأولي التي ربط فيها ميشليه بين الجغرافيا والتاريخ ظهر أيضاً كتابتاريخ البلوبونيز وجغرافيتها لارنست كور تيس (١٨٥١)وقد امتدح هذا الكتاب العالم الجغرافي الكبير همبولت)رائد الجغرافيا الحديثة)، بقوله أنه أشبه بالتصوير المبدع للطبيعة. وكتاب ستانلي عن سيناء وفلسطين (١٨٥٦)، وكتاب الجغرافيا التاريخية للأرض المقدسة لجورج آدم سميث (١٨٩٤) الذى أعيدت طباعته خمس وعشرين مرة، وكان الهدف لدي مؤلفه من تأليفه أن يستكشف من أوضاع الأرض الأسباب التى وجهت التاريخ، ورغم أنه لم يكن حتمياً في كتابه كما قد توحي هذه العبارة، ويمثل هذا الكتاب من أفضل ما كتب عن فلسطين وأثر الظروف الجغرافية في تاريخها القديم.

ومن هذه الكتب التي ربطت بين التاريخ والجغرافيا في العصر الحديث كتابي مس سمبل الأول عن " التاريخ الأمريكي وملابساته الجغرافية " والثاني عن "أثر جغرافية حوض البحر المتوسط في تاريخه العام "، وفيهما تحاول هذه الجغرافية الأمريكية أن تظهر كيف أثرت الظروف الجغرافية في التاريخ، ولا ريب أن في كل من هذين الكتابين كثير من الحقائق الجغرافية بوصفها جغرافية، ولكن ليس لكل هذه الحقائق تأثير بالضرورة على سير التاريخ، فهذه حتمية متطرفة يرفضها كثير من الجغرافيين.

ويتضح ذلك عندما نقارن الكتاب الأول من هذين الكتابين لمس سمبل بكتاب آخر للأستاذ بر يهامعن المؤثرات الجغرافية في التاريخ الأمريكي، والذي ظهر في نفس سنة كتاب مس سمبل الأول (١٩٠٣) وهذا كتاب من نوع آخر، وليس موضوعه المؤثرات الجغرافية على التاريخ بقدر ما هو أحداث التاريخ التى تتصل بالتغيرات الجغرافية.